المقدمة

موضوع الحسبة وتاريخها في الإسلامي مرتبط بأهمّ القضايا الجوهرية المتعلقة بإصلاح العمق الاجتماعي في عقيدته وأخلاقه وسلوكه، و في عموم نظم حياته، وهو موضوع خطير، والبحث فيه شائق وفيه متعة، فهو شائق لأنّه يمتّ بصلة إلى التاريخ الإسلامي في تلك الحقبة من عصور الإسلام الزاهرة ويدلي برحم وشيجة ترتبط بحكمة التشريع الإسلامي، وتؤكد شرعة التعاون والتناصر بين بني الإنسان الذين ورثوا آدم خليفة الله في أرضه ليستمتع بما آتاه الله من فضله،في المدى الذي قدر لبقاء العالم في تلك الحياة الدنيا[1].

والسر في تشريع الحسبة في الإسلام أنّ الناس لا تتم مصالحهم إلاّ بالاجتماع والتعاون على جلب المنافع ودفع المضار،وأنهم محتاجون دائما إلى نظام يسيرون على هديه وسلطة تحرص على تحقيق هذا النظام في حياة المجتمع، لأن "كل بني آدم لا تتم مصلحتهم لا في الدنيا ولا في الآخرة إلاّ بالاجتماع والتعاون والتناصر ؛ فالتعاون على جلب منافعهم، والتناصر لدفع مضارهم ؛ فإذا اجتمعوا فلابد لهم من أمور يفعلونها يجتلبون بها المصلحة وأمور يجتنبونها لما فيها من مفسدة ويكونون مطيعين للآمر بتلك المقاصد، والناهي عن تلك المفاسد.

وإذا كان لابد من طاعة آمر وناهٍ، فمعلوم أن دخول المرء في طاعة الله ورسوله خير له، وهو الرسول النبي الأمي المكتوب في التوراة والإنجيل، الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث وذلك هو الواجب على جميع خلق الله تعالى[2]"

فالحسبة في الإسلام مبنية على أصل من أصول الإسلام العظيمة وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي وصف الله به المسلمين بقوله : {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[3] .

(1) أحمد المراغي: الحسبة في الإسلام، مجلة الأزهر، (1346/2/1هـ)، ص693.

(2) ابن تيمية: الحسبة في الإسلام، دار الحداثة، بيروت، 1995م، ص1.

(3) سورة آل عمران، الآية رقم: 110.

وقد اهتمّ به سلف الأمة قولا وعملا، فحقق الله الفتح على أيديهم، ونشروا دعوة الحق في تلك البقاع الواسعة من العالم وتحقق لهم ما وعد الله به المؤمنين في قوله تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[1].

وإذا كان لكلّ موضوع في البحث العلمي مجال يحدد مقدماته، وأهدافه وغاياته التي ترسم ملامحه، فالحسبة كذلك لها مجالاتها التطبيقية، وأهدافها ومقاصدها، وقد حظيت مباحث الحسبة وتفريعاتها باهتمام متميز بمصر في العصر المملوكي وهو ما تجلى في مصنفات الأعلام وأئمة الفقه في ذلك العصر؛ ويرجع سبب ذلك كله إلى أنّ تلك المؤسسة تعبر تعبيرًا صادقا عن وعي الإنسان تجاه نفسه وتجاه مجتمعه وتجاه دينه.

وقد يجد المطلع على كتب الحسبة التطبيقية سعة في مجالات الحسبة وشموليتها لكثير من قضايا العقيدة والأخلاق والشريعة وقد وضع لها العلماء القواعد التشريعية باستنباطهم الأحكام الجزئية من القواعد الكلية لتحقيق ما يجد من المصالح إذا لم يكن ورد بشأنه نص خاص به، أو نظير يقاس عليه أولم ينعقد عليه الإجماع، تحقيقا للمصالح الاجتماعية المتجددة بتجدد صور الحياة، وقد أقروا أنه لا يجوز إهمال مصالح الدولة أو الأمة أو الأفراد دون تحقيقها بوسائل عملية اجتهادية إذا لم يكن لهذه المصالح ثمة نصوص خاصة بها في التطبيق[2].

---

(1) سورة النور، الآية رقم: 55.

(2) راجع على سبيل المثال أهمّ كتب المجالات التطبيقية التي وضعت قواعد تشريعية خاصة بالحسبة في المشرق: منها : نهاية الرتبة في طلب الحسبة لعبد الرحمن بن نصر الشيزري، وقد حذا حذوه مؤلف كتاب معالم القربة في أحكام الحسبة لمحمد بن محمد المعروف بابن الأخوة ثمّ جاء ابن بسام وهو محمد بن أحمد فأطلق على كتابه اسم كتاب الشيزري السابق نهاية الرتبة في طلب الحسبة هذه نماذج من مشرق العالم الإسلامي. أمّا في المغرب الإسلامي فأقدم كتاب أشار إليه الباحثون هو كتاب "أحكام السوق" ليحي بن عمر، و "آداب الحسبة" لأبي عبد الله المعروف بالسقطي المالقي.

اعتبر بعض العلماء مجال الحسبة مبدأ شرعيًا ووظيفة دينية، تحفظ في إطاره مصالح الفرد والمجتمع والأمة، ومن أهمّ هذه الآراء ما ذهب إليه الماوردي الذي أكد أن الحسبة من القواعد الدينية التي لا يسقط حكمها[1].

وقد أشار ابن خلدون (ت 808هـ) إلى الجانب التأصيلي الشرعي وإلى الصور التطبيقية بقوله: "الحسبة وظيفة دينية، من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين يعين لذلك من يراه أهلا له، فيتعين فرضه عليه، ويتخذ الأعوان، على ذلك[2] ".

ويرى ابن تيمية أحد أهم الأعلام الذين كتبوا في مجال الحسبة، ويرى أن للحسبة مجالات دينية ومدنية واسعة من خلال تحديده لوظائف المحتسب الذي كان له " الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر مما ليس من خصائص الولاة، والقضاة، وأهل الديوان ونحوهم، فكان يأمر بالصلوات الخمس في مواقيتها ويعاقب من لم يصل بالضرب والحبس، ... ويأمر بالجمعة والجماعات، وبصدق الحديث، وأداء الأمانات، وينهى عن المنكرات من الكذب والخيانة، وما يدخل في ذلك من تطفيف المكيال، والميزان، والغش في الصناعات، والبياعات والديانات والغش في النقود أو الجواهر أو العطر...وإبرام عقود الربا والميسر وممارسة التدليس والاحتكار[3]".

وإلى قريب من هذا البيان يذهب القلقشندي[4] الذي يرى تعدد المجالات في الحسبة فيقول :" هي وظيفة جليلة رفيعة الشأن وموضوعها التحدث في الأمر والنهي والتحدث على المعايش

(1) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص258.

(2) ابن خلدون: المقدمة، ص249.

(3) ابن تيمية: مجموع الفتاوى، دار عالم الكتب، الرياض، السعودية، (1412هـ 1991م)، ج28 ص69.

(4) هو أحمد بن علي بن أحمد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل، المحب بن العلاء القلقشندي الأصل، القاهري الشافعي (ت821هـ) من أشهر تصانيفه صبح الأعشى في قوانين الإنشاء
السخاوي: الضوء اللامع، ج2 ص7، الزركلي: الأعلام، ج1 ص77.

والصنائع والأخذ على يد الخارج عن طريق الصلاح في معيشته وصناعته ... وهذه الوظائف لا حصر لعددها على التفصيل ولا سبيل إلى استيفاء ذكرها على تفاوت المراتب[1]".

وفي هذه الدراسة سننطلق بداية من **تمهيد** مختصر عن عصر سلاطين المماليك وظهورهم على مسرح الأحداث ونشأة دولتهم في مصر، ثم نندلف إلى تاريخ الحسبة والمحتسبين بمصر في ذلك العصر من خلال ستة فصول:

يتناول **الفصل الأول**، الحسبة ومكانتها في الإسلام، من خلال دراسة تعريف الحسبة لغة واصطلاحًا، وأركان الحسبة، وشروط الحسبة وولاية المحتسب، وما أجماع عليه العلماء في شروط المحتسب، وتقسيم الفقهاء لشروط الحسبة وتولي المحتسب، مع التطرق لخلاف العلماء في ولاية المرأة الحسبة. ثم نختم بأهمية الحسبة في النظام الإسلامي، ومجالها الفريد.

وفي **الفصل الثاني**، يتم تناول عمل المحتسب ومراتب الحسبة في الإسلام، من خلال البحث في طبيعة عمل المحتسب، بداية من نشأة الحسبة، والتدوين فيها، وأنواعها، والفرق بين الحسبة الخاصة والحسبة العامة، وعمل المحتسب في ضوء صور الاحتساب ودرجاته، بالإضافة إلى آداب المحتسب وارتباطها بعمله.

كما يتناول هذا الفصل أيضا مراتب الحسبة، سواء الحسبة على العقائد، والحسبة على الأسواق، والوقوف عند المعاملات المحرّمة، وتحديد أسعار السوق، ومنع احتكار السلع ونحوها ممّا يحتاج إليه النّاس، كذلك الحسبة على الصحة؛ في المساجد، والمرافق العامة، ونظافة الطرق. كما يتناول الحسبة وارتباطها بالقضاء والمظالم، من حيث التوافق بين الحسبة والقضاء، وأوجه المخالفة بين الحسبة والقضاء، والوجهان اللذان تنفرد فيهما الحسبة عن القضاء، والحسبة وقضاء المظالم.

بينما يتناول **الفصل الثالث** تاريخ نُظم الحِسْبَة بمصر في العصر المملوكي، من حيث اختيار المحتسب وتعيينه، وسجل توليته، ومجلس المحتسب، وأدوات المحتسب (الدفتر والختم)، وهيئة

(1) القلقشندى: صبح الأعشيفي صناعة الإنشا، تحقيق: يوسف علي، دار الفكر، دمشق، ط1، 1987م، ج4 ص37.

المحتسب، ومظهره، زيه وملبسه، ارتدائه العمامة وأغطية الرأس، وارتدائه الملابس الملونة وأنواع القماش، وحذاء المحتسب، كذلك يتناول وظائف المحتسب وألقابه

ثم يتم تناول: وصية المحتسب، وراتبه، وأعوانه ونوابه، من المدراء والنقباء، وعرفاء الأسواق، وولاة الشرطة.

كما يتناول هذا الفصل سلطات المحتسب، ومكانته، وحدود سلطات المحتسب في الاحتساب،ومدى التدرج في استخدام المحتسب لسلطته،وموقف أمراء وسلاطين المماليك من سلطته، في إطار سلطة المحتسب على المجتمع.

ويتطرق هذا الفصل كذلك إلى تناول إمكانية الجمع بين الحسبة وغيرها من الوظائف الدينية، مثل: ولاية الحسبة مع القضاء. ولاية الحسبة مع وكالة بيت المال. ولاية الحسبة مع المارستان. ولاية الحسبة مع الخزانة والقضاء. جمع الحسبة مع القضاء والأوقاف.

وفي **الفصل الرابع** يتم تناول دور المحتسب وتطوره في العصر المماليكي، وذلك من خلال دراسة دور المحتسب في الحياة العامة: من مشاركات المحتسب في الحياة العامة، مراقبة الآداب العامة، الحسبة على النساء التي شملت: الحسبة على أزواج السلاطين، معاقبة النساء بالتجريس والتشهير، خروج النساء إلى الأسواق، مطاردة البغايا من النساء، منع النساء من الجلوس في الحوانيت والذهاب إلى الحمامات إلا بإذن، منع النساء من الخروج إلى المقابر. كما تشمل: الحسبة على الرقيق، الحسبة على أهل الذمة، المساجد وأئمتها وخطبائها ومؤذنيها، الاحتساب على الوعاظ في مجالس الوعظ والقص، والاحتساب على مدرسي الحديث، والحسبة على الصلاة والمصلين، وكذلك المكاتب التعليمية (الكتاتيب) وتعليم الصبية. ثم يأتي توضيح دور المحتسب في النواحي العمرانية، من خلال: التنظيم والإشراف على الطرق والشوارع، وإصدار تراخيص البناء وإزالة المخالفات، والرقابة على الزوايا والخانقاوات، وأماكن مجالس القضاء والحكم، وإصدار التصاريح الخاصة بالمساجد والمدارس، وأيضا المدارس الفقهية وعمارتها.

ثم ينتهي هذا الفصل بتناول تلك التطورات التي طرأت على وظيفة المحتسب، التي ظهرت بمصر في العصر المملوكي، والتي كان منها: مهانة المحتسبين في نظر العامة، وهوان قدر الحسبة واتضاع مستوى متوليها، وتغير نظام تربية المماليك وأثره على أعمال الاحتساب والمحتسبين، وإشراك العامة في تولية المحتسبين وعزلهم، كما وجدت الثورة على المحتسبين والتعرض لهم، وظهر شراء منصب الحسبة بالمال، وكثرت التزامات المحتسب بعد ترك منصبه، كما بدى ولاية الأمراء للحسبة وإقصاء العلماء عنها، وتعددت الحسبات والمحتسبين ووظائفهم، مع ازدياد واجبات محتسب مصر في العصر المملوكي، والتنافس على وظيفة الحسبة.

أما في **الفصل الخامس**، فيتم تناول الحسبة في خدمة المجال البيئي بمصر في العصر المملوكي، في المجالات المتعددة الاقتاصدي والصحي والاجتماعي، ففي المجال الاقتصادي، يتناول جوانب الحسبة على سوق الصاغة، والحسبة على دور الضرب والموازين والمكاييل، والحسبة على المعاملات داخل السوق، والحسبة على أرباب الحرف، والحسبة على تجار الغلة من الطحانين والخبازين، والزينة من الملابس وغيرها، والحسبة على الخمور في بيعها والقائمين عليها، والحوانيت والأسواق، وتنظيم الحوانيت داخل الأسواق حفاظا على البيئة، والرقابة على سير السفن والمراكب، ومواجهة كوارث الحريق.

أما المجال الصحي، فيتناول الحسبة على البيمارستان (المستشفى)، و الرقابة على الأطعمة والأشربة بالأسواق والحوانيت، ونظافة أواني الأطعمة في المتاجر والمطاعم، وطبخ اللحوم والذبح، والسمك صيده، وزنه، وبيعه، والحسبة على الألبان، ومنع تلوث الشوارع والطرقات، وتنظيم وضع السماكين والقصابين "الجزارين"، كذلك الاهتمام بالحيوان.

وفي المجال الاجتماعي، يتناول الحسبة على الحمامات العامة، وسقاية الماء (السقائين)، والأماكن العامة من الجزر والسواحل، والتنزه في الخليج بالمراكب، والحراسة للشوارع بالخفراء، ومنع "تمثيليات خيال الظل"، ودور اللهو، والألعاب والبيئة مثل: مناقرة الديوك ومناطحة الكباش، واللعب بالحمام، ولعب الجوز. بالإضافة إلى الحسبة على الكهانة والشعوذة وضرب الرمل والتنجيم، والحسبة خلال الأزمات البيئية.

وفي مجال تجميل البيئة، يتطرق هذا الجانب إلى أعمال المحتسب لإعادة الإعمار، والاهتمام بالنظافة والمظهر العام للمباني، والاهتمام بالإضاءة والزينة.

وفي **الفصل السادس،** نختم تاريخ الحسبة في العصر المملوكي، بتاريخ بعض المحتسبين في ذلك العصر، ونعطي نماذج ممن تولى منصب الحسبة، سواء في حسبة مصر، أو حسبة القاهرة، وغيرها...

ثم تأتي في نهاية الدراسة الخاتمة، والملاحق، ومكتبة البحث التي تشتمل على المصادر والمراجع العربية والمعربة.

ولا يسعني سوى أن أشكر أولئك الأساتذة والباحثين الذين عاونوني في دراسة تاريخ الحسبة والمحتسبين بمصر في العصر المملوكي. وأرسلوا لي ما كان بوسعهم من مصادر ومراجع أو رأي حول عنصر من عناصر هذه الدراسة. فلهم مني كل الشكر والتقدير، والعرفان بحسن صنيعهم وجميلهم الطيب.

التمهيد

أولا: قيام دولة المماليك في مصر والشام:-

- ظهور المماليك وقيام دولتهم.
- امتداد نفوذ المماليك للحجاز.

ثانيا: الحسبة: تعريفها، وموضوعها:-

- تعريف الحسبة لغة واصطلاحًا.
- موضوع الحسبة في النظام الإسلامي.

أولا: قيام دولة المماليك في مصر والشام:-

- ظهور المماليك وقيام دولتهم:-

أورد ابن منظور (ت711ه) بيانًا واضحًا حول أصل كلمة مماليك، فقال: "المملوك جمعه مماليك، وهو العبد الذي سبي ولم يملك أبواه، والعبد القن هو الذي ملك هو وأبواه[1]، وبذلك كان المملوك عبد يباع ويشترى.

لم تلبث تسمية "المماليك" أن اتخذت مدلولا اصطلاحيًا خاصًا في التاريخ الإسلامي، إذ اقتصرت منذ عهد الخليفة العباسي المأمون[2] (198–218هـ/813– 833م)، ثم المعتصم[3] (218–227هـ/833–842م) على فئة من الرقيق الأبيض كان الخلفاء وكبار القادة من دولة الخلافة العباسية يشترونهم من أسواق النخاسة البيضاء لاستخدامهم كفرق عسكرية خاصة، بهدف الاعتماد عليهم في تدعيم نفوذهم الشخصية. فكان أول من شكل فرقًا عسكرية ضخمة منهم وأحلهم مكان العرب الذين أسقط أسماؤهم من ديوان الجند. وكانت بلاد ما وراء النهر المصدر الرئيسي للرقيق الأتراك.

استكثر الخليفة العباسي المعتصم (218–227هـ/833–842م) من شراء الأتراك بهدف الحد من النفوذين العربي والفارسي مدركًا في الوقت نفسه أهميتهم في التواجد إلى جانبه، حتى بلغت

---

(1) ابن منظور: لسان العرب،دار صادر – بيروت، ط2، 1414هـ، ج10 ص 493.

(2) هو الخليفة أبو العباس، عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور العباسي، ولد سنة (170هـ/786م)، كان من رجال بني العباس حزمًا وعزمًا ورأيًا وعقلا وهيبة وحلمًا. مات في رجب، في ثاني عشرة، سنة (218هـ/833م) وله ثمان وأربعون سنة، توفي ودفن بطرسوس. الذهبي: سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، (1422هـ/2001م)، ص273، وما بعدها.

(3) هو محمد بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور، أبو اسحاق، المعتصم بالله العباسي :خليفة من أعاظم خلفاء هذه الدولة. بويع بالخلافة سنة 218ه، يوم وفاة اخيه المأمون. توفي بسامرا. الزركلي: الأعلام، ص227. السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص 254.

عدتهم ثمانية آلاف مملوك، وذكر أبو المحاسن (ت 874هـ) في "النجوم الزاهرة[1]" أنهم كانوا: "ثمانية عشر ألفا." خصهم بالنفوذ، وقلدهم قيادة الجيوش، ومكنهم في الأرض، وجعل لهم مركزا متفوقا في مجال السياسة. ويشير المسعودي (ت646هـ) أن المعتصم بنى لهم مدينة وهي سامراء[2] وأسكنهم فيها[3].

ونعتقد أن المعتصم استخدم الجيش التركي تخلصًا من النفوذ الفارسي والعربي في الجيش والحكومة سواء، وقد لجأ إلى الأتراك بالشراء والتربية والإعداد إعتقاداً منه بأنه مجردون من الطموح الذي اتصف به الفرس، ومن العصبة التي عرف بها العرب.

وهكذا يبدو أن الخليفة العباسي المعتصم هو أول خليفة اعتمد بشكل أساسي على العنصر التركي، نظرا لمقدرتهم القتالية المميزة، حتى أضحى الحرس التركي يمثل دعامة من دعائم الخلافة العباسية أيام حكمه، ويؤكد ذلك ما أورده اليعقوبي (ت292هـ) فيقول:"اقتناهم منذ أن كان أميرًا، فكان يرسل سنويًا من يشتري له منهم، حتى اجتمع له في أيام المأمون زهاء ثلاثة آلاف[4]" .

وفي مصر استخدم الطولونيون[5] المماليك الأتراك بشكل واسع، واعتمدوا عليهم في قيام دولتهم واستمرارها (254–292هـ/868–905م) فقد طمع أحمد بن طولون التركي الأصل

(1) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر، ج2 ص233.

(2) سامَرّاء: مدينة كانت بين بغداد وتكريت على شرقي دجلة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج3 ص173.

(3) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: أسعد داغر، دار الهجرة – قم، 1409هـ، ج3 ص 466–467.

(4) اليعقوبي: كتاب البلدن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422هـ، ص23.

(5) ابن طُولُون (220-270هـ/835-884م) أحمد بن طولون، أبو العباس: الأمير صاحب الديار المصرية والشامية والثغور. تركي مستعرب. كان شجاعًا جوادًا حسن السيرة. بنى الجامع المنسوب إليه في (=)القاهرة. الزركلي: الأعلام، ج1 ص140. أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج3 ص1. ابن خلدون: تاريخه، ج4 ص 297. ابن الأثير: الكامل، ج7 ص 136. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج1 ص55.

بالاستقلال بحكم مصر، بعد أن عينه الخليفة المعتمد (256 – 279 هـ / 870 – 892م) في عام (263هـ / 877م) واليا عليها، وابن الأثير (ت 630ه) يشير بعبارة موجزة إلى تلك السلطة التي تقلدها هؤلاء في مصر بقوله: "وأضحت جميع أعمالها الإدارية والقضائية والعسكرية والمالية بيده[1].

ويبدو أن ابن طولون كان ذا نزعة استقلالية، وحتى يحقق رغبته بالاستقلال في حكم مصر، رأى أن يدعم سلطته بجيش مملوكي من الأتراك من بني جنسه، وقد بلغ تعداد هذا الجيش – فيما أورده المقريزي (ت845ه) في "الخطط[2]"، وابن إياس (ت930ه) في "بدائع الزهور[3]": "أربعة وعشرين ألف غلام تركي".

ويشير ابن طباطبا (ت 709ه) أن هذا العصر كان فترة تسلط الأتراك على الخلافة العباسية حيث يصف وضع دولة الخلافة العباسية في عهد تسلط الأتراك منذ مقتل المتوكل[4](232–247هـ/847–861م) بقوله: "واستضعفوا الخلفاء، فكان الخليفة في أيديهم كالأسير، إن شاءوا أبقوه، وإن شاءوا خلعوه، وإن شاءوا قتلوه[5]".

ويشير الطبري (ت310ه) في "تاريخه[6]"،وأبو المحاسن(ت 874ه) في "النجوم[7]" فيما أورداه إلى استخدام العنصر التركي في الوظائف الكبرى في دولة الخلافة العباسية قبل عهد المعتصم،

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، ط1 ، (1417ه/1997م)، ج5 ص 339.

(2)المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار الكتب العلمية،بيروت، ط1418،1ه،ج1ص 168.

(3) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الزهور، تحقيق: محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (1404ه/ 1984م)، ج1 ص 162.

(4) المُتَوَكِّل العَبَّاسي (206 - 247 هـ = 821 - 861 م) جعفر (المتوكل على الله) بن محمد (المعتصم باللَّه) بن هارون الرشيد، أبو الفضل: خليفة عباسي. ولد ببغداد وبويع بعد وفاة أخيه الواثق سنة 232 ه وكان جوادا ممدحا محبا للعمران، من آثاره (المتوكلية) ببغداد. الزركلي: الأعلام، ج2 ص127.

(5) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار القلم العربي، بيروت، ط1، (1418هـ/ 1997م)، ص220.

(6) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، دار التراث، بيروت، ط2، 1387ه، ج8 ص 143.

(7) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج2 ص44.

ففي أوائل عهد الدولة استخدم الخليفة العباسي المهدي[1] (158- 169هـ/ 775 – 785م) "يحيى بن داود الخرسي" على إمارة مصر في عام (162هـ/778م) وهو مملوك تركي.

وفي موضع أخر ذكر الطبري (ت310ه) أن "طرسوس عمرت على يد أبي سليم فرج الخادم التركي في عام (170هـ/ 786م)[2]".

وهكذا أضحى العنصر التركي ركنًا هامًا في المجتمع الإسلامي منذ العصر العباسي الثاني (232–334هـ/847-946م)، فقامت الدويلات المستقلة ذات الأصول التركية والفارسية في كنف دولة الخلافة العباسية بعد أن دب فيها الضعف، وغدا الأتراك وسيلة الخلفاء.

ويذكر أبو المحاسن (ت 874ه) أن مماليك محمد بن طغج الأخشيدي[3]، مؤسس الدولة الأخشيدية في مصر، نحو ثمانية آلاف مملوك من الأتراك والديلم[4]، وأنه كان ينام بحراسة ألف مملوك[5].

---

(1) المَهْدي (127-169هـ/744-785م) محمد بن عبد الله المنصور بن محمد ابن علي العباسي، أبو عبد الله، المهدي باللَّه: من خلفاء الدولة العباسية في العراق. ولي بعد وفاة أبيه وبعهد منه سنة 158 ه وأقام في الخلافة عشر سنين وشهرًا. الزركلي: الأعلام ، ج6 ص221. الكتبي: فوات الوفيات، ج2 ص 255.ابن الأثير: الكامل، ج6 ص11، 27. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج10 ص11–21.

(2) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج8 ص234.

(3) الإِخْشِيد (268-334هـ/882-946م) محمد بن طغج بن جف، أبو بكر، الملقب بالإخشيد: مؤسس الدولة الإخشيدية بمصر والشام، والدعوة فيها للخلفاء من بني العباس. تركي الأصل، مستعرب. الزركلي: الأعلام، ج6 ص 174.

(4) ذكر ابن منظور في لسان العرب: أن الجيش الكثير، يقال له "ديلم"، وهم جيل من الناس معروف من الترك. لسان العرب، ج12 ص 204 - 205. وفي دائرة المعارف الإسلامية: "الديلم: هو الجزء الجبلي من جيلان، سكنته قبيلة تعرف أيضا بالديلم، كانوا وثنيين قبل أن يدخلوا في الإسلام، وكانوا يمدون الخلفاء العباسيين بالجنود المرتزقة." انظر: دائرة المعارف الإسلامية، ج9 ص 367.

(5) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج3 ص256.

وبعد قيام الدولة الفاطمية في مصر في عام (358هـ/969م) بعد قيام دولتهم في شمالي أفريقيا، اعتمد خلفاؤهم الأوائل، منذ أيام المعز[1] (341-365هـ/952–975م) على عدة عناصر تركية وسودانية وبربرية وصقلبية[2].

واعتمد الفاطميون منذ عهد المستنصر (427–487هـ/1036–094م) على عناصر مختلفة، وقد استكثر هذا الخليفة من شراء العبيد السود لأن أمه كانت أمة سوداء، وظل هذا العنصر عماد الدولة الفاطمية حتى زوالها. حيث اهتم الفاطميون بتربية صغار مماليكهم وفق نظام خاص،فكانوا أول من وضع نظامًا منهجيًا في تربية المماليك في مصر [3].

على أنقاض الدولة الفاطمية قامت الدولة الأيوبية في مصر عام (567هـ/ 1171م) لتفتح صفحة جدية في تاريخ الشرق الأدني والمماليك معًا، وهذه الدولة كردية الأصل، نمت في أحضان الدولة السلجوقية التركية[4] ومماليكها، ونقلت عنها الكثير من عاداتها وأنظمتها التركية المشرقية.

---

(1) المُعِزّ الفاطِمي (319 - 365 هـ = 931 - 975 م) معد (المعز لدين الله) بن إسماعيل (المنصور) بن القائم بن المهدي عبيد الله الفاطِمي العبيدي، أبو تميم: صاحب مصر وإفريقية، وأحد الخلفاء في هذه الدولة. ولد بالمهدية (في المغرب) وبويع له بالخلافة في (المنصورية) بعد وفاة أبيه سنة 341 هـ. الزركلي: الأعلام، ج7 ص265. ابن الجوزي: المنتظم، ج7 ص 82. ابن إياس: بدائع الزهور، ج1 ص 45. ابن الأثير: الكامل، ج8 ص 165–220.

(2) صقلب كلمة فارسية قديمة، ومعناها عبد أو رقيق، أطلق العرب عليهم اسم الصقالبة. أحمد مختار العبادي: قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، ص35.

(3) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج3 ص70.

(4) السلاجقة: أو بنو سلجوق هي سلالة تركية حكمت في أفغانستان وإيران وأجزاء من الأناضول وسورية والعراق والجزيرة العربية ما بين (1038-1157م) ثم حتى 1194م، وكان مقرها مرو ثم اصفهان. ينتمون إلى قبيلة "قنق" إحدى العشائر المتزعمة لقبائل الغز التركية، دائرة المعارف الإسلامية، مج5 ص 38 – 45. صدر الدين الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية، تحقيق: محمد إقبال، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1984م، ص6. ستانلي بول: تاريخ الدول الإسلامية، ومعجم الأسر الحاكمة، ترجمة: أحمد السعيد سليمان، دار المعارف، القاهرة، ج1 ص 313/ 325.

اعتمد السلاجقة منذ نشأتهم المبكرة على المماليك من الترك، وتربى هؤلاء في البلاط السلجوقي وأمرائهم، فكانوا كما ذكر القلقشندي (ت821هـ) يجلبون صغار السن من بلاد القفجاق[1].

ويذكر أبو شامة (ت665هـ) أن الجيش الذي أرسله نور الدين محمود زنكي[2] لمصر في عام (559هـ/1164م) بقيادة أسد الدين شيركوه، تألف في غالبيته من المماليك والأمراء النورية[3] بالإضافة إلى فرقة من المماليك الأسدية[4] .

ويروي ابن الأثير (ت630هـ) أن هذه الفرقة –الفرقة الأسدية- هي أيضا التي مكنت لصلاح الدين الأيوبي في الاستيلاء على مصر حينما تولى وزارة مصر من قبل الخليفة الفاطمي العاضد (555

(1) القفجاق: أو "القبجاق" أو "القبشاك"، إقليم في حوض نهر الفولغا في الجنوب الشرقي من بلاد الروسيا، السابقة، وشمالي البحر الأسود والقوقاز، وسكانها من أصل تركي، اشتهروا بالبداوة والفروسية، وتعتبر بلادهم مركزا مهما لتجارة الرقيق الأبيض من الترك. القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الأنشا، دار الكتب العلمية، بيروت، ج4 ص458.

(2) العادل نُور الدين (511 - 569 هـ / 1118 - 1174 م) محمود بن زنكي (عماد الدين) ابن اقسنقر، أبو القاسم، نور الدين، الملقب بالملك العادل: ملك الشام وديار الجزيرة ومصر. وهو أعدل ملوك زمانه وأجلّهم وأفضلهم. كان من المماليك (جده من موالي السلجوقيين). الزركلي: الأعلام، ج7 ص170. ابن الأثير: الكامل، ج11 ص 151. ابن خلدون: تاريخه، ج5 ص 253.

(3) الأمراء النورية: نسبة إلى نور الدين محمود زنكي الابن الثاني لعماد الدين زنكي. ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب، 2005م، ص 525. المقدسي: عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، 1991م، ص 386. ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، 1968م، ص 184. علي محمد الصلابي: نور الدين محمود زنكي شخصيته وعصره، دار الأندلس الجديدة، القاهرة، 2008م، ص 21.

(4) المماليك الأسدية: نسبة إلى الأعلام المَنْصور شِيركُوه (000-564 هـ =000 - 1169م) شيركوه بن شاذي بن مروان، أبو الحارث، أسد الدين، الملقب بالملك المنصور: أول من ولي مصر من الأكراد الأيوبيين. وهو أخو نجم الدين أيوب، وعمّ السلطان صلاح الدين. الأعلام: الزركلي، ج3 ص183. أبو شامة: عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط1، (1418هـ/ 1997م)، ج1 ص 155.

– 567هـ / 1160- 1171م)[1] ، وأنشاء لنفسه جيشا خاصا عماده المماليك الأسدية والأحرار الأكراد، الذي كانوا في خدمته، بالإضافة إلى المماليك الأتراك الذين اشتراهم لنفسه وسماهم الصلاحية أو الناصرية[2].

وابن واصل (ت 697هـ) يروي أنه بمجرد وفاة الخليفة الفاطمي العاضد في عام (567هـ/ 1171م) وزالت بوفاته دولة الخلافة الفاطمية قطع صلاح الدين الخطبة له، وخطب للخليفة العباسي المستضيء[3].

لعب المماليك الأسدية والصالحية[4] دورًا كبير في تسليم السلطة في مصر بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي حينما دب الخلاف بين أبنائه، ويذكر المقريزي (ت845هـ) في "السلوك[5]"، وأبو شامة (ت665هـ) في "الروضتين[6]"، أنهم أحالوا بين استيلاء أخ صلاح الدين الملك العادل على مصر حينما حاول ضمها إليه، فناصروا العزيز ابن صلاح الدين، ملك مصر، كما ساندوا ابنه المنصور الذي خلفه في عام (595هـ/1198م)، وكان صغيرا ثم استعدوا الملك الأفضل من حوران وسملوه مقاليد الأمور.

---

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج9 ص 102.

(2) أبو شامة: عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج2 ص 229.

(3) الخليفة أبو محمد الحسن ابن المستنجد بالله يوسف ابن المقتفي محمد ابن المستظهر أحمد ابن المقتدي الهاشمي العباسي. بويع بالخلافة وقت موت أبيه في ربيع الآخر سنة ست وستين وخمسمائة ، وقام بأمر البيعة عضد الدين أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء ، فاستوزره يومئذ. ولد سنة 536هـ، وأمه أرمنية اسمها غضة. وكان ذا حلم وأناة ورأفة وبر وصدقات. مات في شوال سنة 575هـ وبايعوا بعده ولده الناصر لدين الله. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ص68 -72. ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج1 ص200.

(4) المماليك الصالحية، تسمى أيضا "الصلاحية" نسبة إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب. انظر: أبو شامة: المصدر نفسه، ج2 ص 229، 235.

(5) المقريزي: السلوك في معرفة دول الملوك، ج1 ص 146 – 147.

(6) أبو شامة: المصدر نفسه، ج2 ص 235.

كان النزاع بين المماليك الصالحية والمماليك الأسدية أثره الكبيرة في انتصار الملك العادل في عام (597هـ/ 1200م) وأن يصبح سلطانا على مصر فضلا عن احتفاظه بإمارة دمشق وأملاكه بأعمال الجزيرة[1].وهكذا أعاد العادل توحيد مصر والشام، وأضح جميع الأمراء الأيوبين خاضعين لسلطانه.

ومن خلال الأحدث التي مجدت لتاريخ المماليك فيما أورده كل من المقريزي في "السلوك[2]"، وابن واصل في "مفرج الكروب[3]" ، وابن إياس في "بدائع الزهور[4]" تجلت قوة المماليك بشكل واضح بعد وفاة الملك العادل وتدخلهم في شؤون الحكم، ومع مرور الوقت أخذ نفوذهم يتضخم بشكل ملفت.

وأشار كل من المقريزي في "الخطط[5]" ، وأبو المحاسن في "النجوم[6]"، وابن إياس في "بدائع الزهور[7]"مدى ذلك فالمماليك الصالحية استغلوا سطوتهم في مضايقة الناس والعبث بممتلكاتهم وأرزاقهم، حتى ضج الشعب من عبثهم واعتداءاتهم فرأى الصالح أيوب أن يبعدهم فبنى لهم قلعة خاصة وأسكنهم فيها بعيدًا، فعرفوا بالمماليك البحرية الصالحية.

وعلى صعيد أخر تناول المقريزي (ت845هـ)في"السلوك[8]"،وأبو المحاسن (ت 874هـ) في "النجوم[9]" أحداث الحملة الصليبية على مصر ومشاركة المماليك في درء خطرها خلال دفع خطرهم عن دمياط سنة (647هـ/ 1249م) وانسحاب فخر الدين مع جنوده منها مما أدى إلى سقوط

(1) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج2 ص162 - 163.
(2) المقريزي: السلوك في معرفة دول الملوك، ج1 ص 295- 296.
(3) ابن واصل: المصدر نفسه، ج2 ص337.
(4) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الزهور، ج1 ص 269 - 270 .
(5) المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج3 ص 173.
(6) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج6 ص320.
(7) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الزهور، ج1 ص 269.
(8) المقريزي: السلوك في معرفة دول الملوك، ج1 ص 333.
(9) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج6 ص330.

دمياط[1] في أيدي الصليبيين، فارتاع المسلمون لسقوط دمياط، وحزن الصالح أيوب حزنًا شديدًا لوقوعها في قبضة الصليبيين، وعنف مماليكه ووبخهم لإهمالهم في الدفاع عنها، وشنق ما يزيد عن خمسين أميرًا من رجال بني كنانة[2] الذين تركوا مواقعهم الدفاعية وهربوا.

وفي عام (647هـ/ 1249م) قضى الصالح أيوب نحبه، ولم تكن الحرب قد وضعت أوزارها ضد الصليبيين، فتولت زوجته شجر الدر[3] شئون الحكم، وأرسلت إلى ابنه الباقي على قيد الحياة المعظم تورانشاه[4] من حصن كيفا[5]، للقدوم إلى مصر على عجل ليتولى الحكم.

برز في هذه الحرب المماليك البحرية الذين أخذوا على عاتقهم إنقاذ الموقف، وقد تولى قيادتهم فارس الدين أقطاي الصالحي[6]، وأعد الخطة العسكرية التي كفلت لهم النصر النهائي على

(1) دِمْيَاطُ: مدينة قديمة بين تنّيس ومصر على زاوية بين بحر الروم والنيل، وهي ثغر من ثغور الإسلام. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج2 ص472.

(2) بني كنانة: قبيلة عربية كبيرة، تنتسب إلى عدنان. الزبيري: نسب قريش، تحقيق: ليفي بروفنسال، أستاذ اللغة والحضارة بالسوربون، ومدير معهد الدروس الإسلامية بجامعة باريس – سابقا، دار المعارف، القاهرة، ط3، ص10.

(3) شجر الدر: أو شَجَرَة الدُّرّ (000-655 هـ/000-1257م) الصالحية، أم خليل، الملقبة بعصمة الدين، ملكة مصر. أصلها من جواري الملك الصالح نجم الدين أيوب. اشتراها في أيام أبيه، وحظيت عنده، وولدت له ابنه خليلا، فأعتقها وتزوجها، فكانت معه في البلاد الشامية، لما كان مستولا على الشام، مدة طويلة. ثم رافقته لما انتقل إلى مصر وتولى السلطنة. الزركلي: الأعلام، ج3 ص 158.

(4) المَلِك المُعَظَّم (000 - 648 هـ = 000 - 1250 م) تورانشاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل محمد: ثامن سلاطين الدولة الأيوبية بمصر، وآخرهم، وثالث من سمّي (الملك المعظم) منهم. وجدّ ملوك حِصن كيفا. كانت إقامته في حصن كيفا (بديار بكر) نائبا عن أبيه. الزركلي: الأعلام، ج 2 ص 90.ابن إياس: بدائع الزهور، ج1 ص 85. ابن الوردي: تاريخه، ج2 ص 181.المقريزي: السلوك، ج1 ص 351 – 361.

(5) حصن كيفا: بلدة وقلعة كبيرة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج2 ص 565.

(6) هو فارس الدين أقطاي الجمدار النجمي الصالحي، أحد قادة المماليك، وزعيم المماليك البحرية بمصر بعد وفاة الصالح نجم الدين أيوب، توفي بقلعة الجبل في القاهرة سنة 1254م. ازداد نفوذه في عهد الأمير عز الدين أيبك. المقريزي: السلوك في معرفة دول الملوك، ج1 ص 333.

الصليبيين، واضطر الصليبيون إلى التراجع تحت ضغط معركة "فارسكور" فطاردهم المماليك، ووقع لويس التاسع نفسه في الأسر[1] وعلى هذا الشكل انتهت الحملة الصليبية، بفضل جهود المماليك.

تدهورت الأمور عقب الانتصار على الصليبيين بتسلط السلطان تورانشاه، ودخول الخوف إلى شجر الدر منه، والمماليك أيضا، فدبروا قتله في 28 شهر محرم عام 648هـ / 1250م.

وذكر النويري (ت733هـ) في "نهاية الأرب[2]" ، والعيني (ت855هـ) في "عقد الجمان[3]"، وأبو المحاسن في "النجوم الزاهرة[4]" أن جثته ظلت في العراء مدة ثلاثة أيام بعد انتشالها من الماء دون أن يجروء أحد على دفنها، حتى شفع فيه رسول الخليفة العباسي، فحملت الجثة إلى الجانب الآخر من النهر ودفنت هناك. وهكذا بمقتل تورانشاه ينتهي حكم الأيوبيين في مصر.

أصبح المماليك بعد مقتل تورانشاه هم أصحاب الحل والعقد، وكان من الطبيعي أن يطمع كل أمير منهم في تبوء السلطنة الشاغرة، ولكن انتهى الأمر بتولية شجر الدر للسلطنة في مصر، وهي من ناحية الأصل والنشأة أقرب إلى المماليك. فقد ذكرها غير واحد من المؤرخين[5] أنها كانت جارية لدى السلطان الصالح نجم الدين أيوب، وكانت محظية عنده.

وبينما اعتبر المقريزي (ت845هـ) أن شجر الدر هي أولى سلاطين دولة المماليك الأولى[6].وربما دفعه ذلك لاعتبار النويري(ت 733هـ) أن السلطان تورانشاه هو آخر ملوك الأيوبيين المستقلين في

(1) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج6 ص330.

(2) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط1، 1324هـ، ج29 ص 360 – 361.

(3) بدر الدين العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، (د.ت)، ج1 ص42.

(4) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج6 ص 371 – 372.

(5) راجع أبو الفداء (ت732هـ): المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية، ط1، ج3 ص180. الذهبي (ت 748هـ): تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، (1413هـ/ 1993م)، ج48 ص 198. أبو المحاسن: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ج6 ص332 ، 373.

(6) المقريزي: السلوك في معرفة دول الملوك، ج1 ص 361.

مصر [1]، في حين أن كل من المنصوري[2]، والعيني[3]، وأبو المحاسن[4]، وابن إياس[5]، يذهبون إلى أن شجر الدر هي آخر سلاطين الأيوبيين، وهو الرأي الذي نتبناه.

بينما يرى القرماني (ت1019هـ) [6] أن الملك الأشرف موسى[7] الذي نصبه الملك المعز أيبك[8] سلطانًا، هو آخر ملوك الأيبويين في مصر وكان في العاشر من عمره.

ومهما يكن الأمر فقد بويعت السلطانة شجر الدر في (648هـ/1250م) [9]، وأنعمت على الأمراء بالوظائف السنية، وأقطعت المماليك البحرية الإقطاعات الكبيرة، وأغدقت الأموال على الجند، حتى أرضت الكبير منهم والصغير، كل هذا بعد ما حلفت لها العساكر باعتبارها سلطانة، كما عهد المماليك إلى عز الدين أيبك وهو أحد الأمراء الصالحية بأتابكية [10] العسكر [11]، فكان لها بمثابة الشريك لها في الحكم.

---

(1) النويري: المصدر نفسه، ج29 ص 362.

(2) بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية في الدولة التركية، ص27.

(3) بدر الدين العيني: المصدر نفسه، ج1 ص 34.

(4) أبو المحاسن: المصدر نفسه، ج7 ص 3.

(5) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الزهور، ج1 ص 286 – 288.

(6) القرماني: أخبار الدول وآثار الأول، ص65.

(7) هو الأشرف موسى بن يوسف بن مسعود بن الكامل، عاش والدن في كنف الصالح أيوب، حتى توفي عن هذا الطفل الصغير موسى. المقريزي: السلوك في معرفة دول الملوك، ج1 ص 369. العيني: عقد الجمان، ج1 ص 135.

(8) المُعِزّ التُّرْكُماني (000 – 656 هـ = 000 – 1258 م) أيبك بن عبد الله الصالحي النجمي، عز الدين التركماني: أول سلاطين المماليك البحرية في مصر والشام. كان مملوكا للصالح نجم الدين أيوب،وأعتقه فصار في جملة الأمراء عنده.الزركلي: الأعلام، ج2 ص 33.ابن إياس: بدائع الزهور، ج1 ص90. المقريزي: السلوك، ج1 ص 368 – 404.أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج7 ص 3–41.

(9) ابن إياس: المصدر نفسه، ج1 ص 268.

(10) الأتابك: كلمة تركية مؤلفة من كلمتين "أتا" بمعنى الأب ، و"بك" بمعنى الأمير، ومعناها مربي الأمير، وكان السلاطين السلاجقة يعهدون بتربية أبنائهم إلى المقربين منهم من المماليك الأتراك الذين ترعرعوا في كنفهم.

(11) بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية في الدولة التركية، ص27.

بعد نجاح شجر الدر في تصفية الحملة الصليبية واستعادت دمياط، عملت على تدعيم مركزها الداخلي، فخففت الضرائب عن الرعية لتستميل قلوبهم. وكان الخطباء يدعون لها، في دعاء يوم الجمعة على المنابر [1].

لكن هذا الجانب من الدعاء لم يدع رجال الدين يتقاعسوا عن رؤية الصورة بشكل واضح ودقيق، فما لبثت أن قامت المعارضة ضد شجر الدر، ويذكر السيوطي (ت911هـ) أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام[2]، وهو أكبر زعيم ديني في تلك الفترة كتب كتابا حول ما قد يصيب المسلمين نتيجة توليتهم لامرأة[3].

وذكر المنصوري[4]، والعيني[5] أن الملوك والأمراء في بلاد الشام رفضوا حلف اليمين لشجر الدر، فقد رفض المماليك القيمرية[6] في دمشق، وكتبوا إلى الملك الناصر يوسف[7] الأيوبي صاحب

(1) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج29 ص 763. بدر الدين العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج1 ص 27. ابن إياس: المصدر نفسه، ج1 ص 268.

(2) ابن عبد السَّلام (577 – 660 هـ = 1181 – 1262 م) عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقيّ، عز الدين الملقب بسلطان العلماء: فقيه شافعيّ بلغ رتبة الاجتهاد. ولد ونشأ في دمشق. وزار بغداد سنة 599 هـ فأقام شهرا. وعاد إلى دمشق، فتولى الخطابة والتدريس بزاوية الغزالي، ثم الخطابة بالجامع الأموي. الزركلي: الأعلام، ج4 ص21. الكتبي: فوات الوفيات، ج1 ص 287. السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج5 ص 80 –107. أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج7 ص 208.

(3) السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية – عيسى البابي الحلبي وشركاه – مصر، ط1، (1387هـ / 1967م)، ص34.

(4) بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية في الدولة التركية، ص27.

(5) بدر الدين العيني: المصدر نفسه، ج1 ص 31.

(6) القيمرية: نسبة إلى قيمر، وهي قلعة بين الموصل وخلاط، وكان سكانها زمن ياقوت الحموي من الأكراد. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج4 ص 424.

(7) هو المَلِك النَّاصِر (627-659 هـ/1230-1261م)، يوسف (الناصر) بن محمد (العَزِيز) ابن الظاهر غازي ابن الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب: آخر ملوك بني أيوب. ولد بقلعة حلب وولي الملك فيها بعد وفاة والده (سنة 634 هـ وعمره نحو سبع سنين. الزركلي: الأعلام، ج8 ص 250.الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج2 ص 307. أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج7 ص 203. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج5 ص 299.

حلب[1] يعلمونه بموقفهم الرافض لحكم شجر الدر ، ويستدعونه للقدوم إليهم ليسلموا له دمشق[2].

ولم يلبث الأمر أن تدهور عقب هذه الاجراءات وما أخذته من أوضاع في بلاد الشام، فلم يلبث الملك الناصر يوسف أن انتهز الفرصة وزحف في تجاه دمشق فدخلها أواخر سنة (648هـ/ 1250م)[3]، وخرجت بذلك بلاد الشام من شجر الدر، وانتهى الأمر إلى خلع السلطانة شجر الدر واعتلاء عز الدين أيبك للعرش[4]، وبه قامت دولة المماليك البحرية في مصر، ولقب بـ "المعز أيبك"، وطويت صفحة وبدأت أخرى.

كان أيبك أحد المماليك الصالحية، ولم يكن من المماليك البحرية، ولا أكبرهم سنا أو أقدمهم خدمة أو أقواهم نفوذًا، لكنه اشتهر بين المماليك بدين وكرم وجودة رأي[5].

ونلاحظ أن العرب من سكان مصر الذين استوطنوا هذا البلد منذ الفتح الإسلامي، قد تحولوا تدريجيا إلى مزارعين مستقرين، خاصة في أقاليم الصعيد والشرقية، وأطلق عليهم العراب المزارعة، ويبدو أن هؤلاء العرب احتقروا المماليك، ورفضوا أن يخضعوا لحكمهم بسبب أصلهم غير الحر، واعتبروا أنهم أحق بالملك منهم.

اتخذ رفضهم شكل ثورة مسلحة تزعمها الشريف حصن الدين بن ثعلب، ويبدو أن الحركة الثورية لم تقتصر على المزراعين العرب وحدهم، بل انتشرت بين العامة الذين التفوا حول الشريف حصن الدين، ورفض المصريون سلطان جرى عليه رق، فكانوا يهاجمون أيبك ويوجهون إليه النقد ويسمعونه ما يكره، من ذلك، ما أورده أبو المحاسن:" لا نريد إلا سلطانا ريئسا مولودا على الفطرة[6]"

(1) حَلَبُ: مدينة عظيمة، من مدن الشام، واسعة كثيرة الخيرات طيبة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج2 ص 282.
(2) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج29 ص 367.
(3) بدر الدين العيني: المصدر نفسه، ج1 ص 31.
(4) المقريزي: السلوك في معرفة دول الملوك، ج1 ص 368 – 369. النويري: المصدر نفسه، ج29 ص 363.
(5) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج7 ص 4.
(6) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج7 ص13.

وحتى يقوي سلطة دولته الناشئة، اتصل الشريف بالملك الناصر يوسف صاحب الشام، وطلب مساعدته في محاربة المماليك[1]، لكن الملك الأيوبي الذي كان يجري، أنذاك مفاوضات مع أيبك بشأن عقد صلح بينهما، لم يكن بوسعه أن يقدم أية مساعدة.

أثارت هذه الحركة الثورية مخاوف المماليك، فخشوا على مستقبل دولتهم الوليدة مما دفعهم إلى اتباع سياسة العنف والقوة في قمعها، فأرسل أيبك حملة عسكرية بقيادة أقطاي للقضاء على هذه الثورة، وتمكن الأخير من التغلب على المقاومة العربية في بلبيس، وظل حسن الدين طليقا بحكم مصر الوسطى حتى قبض عليه الظاهر بيبرس عندما تولى الحكم وشنقه[2].

إذا كان أيبك قد نجح في التغلب على ثورة العرب التي واجهته بمساعدة المماليك البحرية فإن النيجة الحتمية لذلك الوضع هي ازدياد نفوذ هؤلاء وارتفاع مكانة زعيمهم فارس الدين أقطاي. ويبدو أن الانتصارات التي حققها أيبك، وتلك الإجراءات الشكلية التي أحاط نفسه بها، لم تقلل من خطر أقطاي، ولم تحد من نفوذه وطموحه، حتى أفاق أيبك أخيرا ليجد نفسه أمام منافس قوي بلغ درجة عالية من السطوة والنفوذ فاقت سطوة الملك ونفوذه، محاطا بالفرسان المسلحين، وقد اعتدوا بأنفسهم وبقوتهم[3].

وذهب أقطاي بعيدا حين راح يهاجم أيبك، ويبالغ في تحقيره في مجلسه ولا يسميه إلا "أيبكا[4]" وينتحل لنفسه في مواكبه ومجالسه بعض الشعارات السلطانية، ثم تطلع نحو السلطنة، وسانده أتباعه البحرية لتحقيق أمنيته، فلقبوه بالملك الجواد[5].

---

(1) المقريزي: السلوك في معرفة دول الملوك، ج1 ص 386.

(2) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج29 ص 429.

(3) النويري: المصدر نفسه، ج29 ص 430.

(4) أيبك: تعني الجميل، وهي مكونة من مقطعين، "أي": تعني القمر، و"بك": وتعني: أمير. المقريزي: السلوك في معرفة دول الملوك، ج1 هامش ص463. وتقوله: "أيبكا" تهكمًا منه له.

(5) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج7 ص 11.

وازداد أقطاي عتوا حينما خطب لنفسه إحدى أميرات البيت الأيوبي، وهي ابنة المظفر تقي الدين محمود[1] صاحب حماة، فأضحى له سند شرعي في الحكم، ثم طلب من المعز أيبك أن يسكن قلعة الجبل، باعتبار زوجته من بنات الملوك. وعندئذ أردك أيبك ما يجول في فكر أقطاي، لأن قلعة الجبل كانت في ذلك الوقت المقر الرسمي للحكم، وكان معنى طلبه أن تطلع نحو السلطنة[2].

فلم يبق لديه بعد ذلك أدنى شك في نواياه السلطوية وأضحى التخلص منه ضرورة ملحة وصمم على قتله فاستدرجه صباح يوم الاثنين في 11 من شهر شعبان عام 652هـ/ 1254م إلى القلعة بحجة استشارته في أمر مهم، وكان قد اتفق مع مماليكه المعزية على اغتياله.

وبالفعل حضر أقطاي إلى قلعة الجبل مع بعض مماليكه، فما كاد يدخل باب القلعة المؤدي إلى القاعة الكبرى حتى أغلق خلفه، ومنع مماليكه من الدخول، ثم هاجمه المماليك المعزية، ومنهم الأمير قطز، وانقضوا عليه وقتلوه بسيوفهم كما أورد المنصوري[3] والنويري[4].

أشيع خبر مقتل أقطاي في القاهرة، فهرع سبعمائة من مماليكه لإنقاذه ظنا منهم أنه لم يقتل بعد، كان من بينهم الأمراء بيبرس البندقداري وقلاوون الألفي وسنقر الأشقر، وعسكروا تحت القلعة، لكن أيبك ألقى أليهم برأس زعيمهم، فهربوا من بطشه، فمنهم من استطاع الفرار إلى بلاد الشام. وظل المماليك الذين فروا إلى بلاد الشام يسببون المتاعب لأيبك بفعل أنهم حثوا الزعماء الأيوبيين وعلى رأسهم الناصر يوسف على مهاجمة مصر.

---

(1) المَلِك المُظَفَّر (599-642 هـ/1202-1244م) محمود بن محمد المنصور بن عمر المظفر بن شاهنشاه، تقي الدين، الملك المظفر: صاحب حماة مولده ووفاته فيها. كان شجاعا كريما ذكيا محبا للعلماء. ولي حماة سنة 626 هـ بعد انتزاعها من أخيه الناصر قليج أرسلان، واستمر إلى أن توفي. الزركلي: الأعلام، ج7 ص 182. ابن الوردي: تاريخه، ج2 ص 174. أبو الفداء: المختصر، ج3 ص 144.

(2) المقريزي: السلوك في معرفة دول الملوك، ج1 ص 368

(3) بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية في الدولة التركية، ص35.

(4) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج29 ص 430 - 431.

فبزعامة الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب تحرك الملوك والأمراء الأيوبيين، باتجاه مصر لاستعادتها من أيدي المماليك، وعندما علم أيبك بأنباء هذا الزحف، قرر مواجهة هذا الخطر بالطرق السلمية أولا. وحتى يمتص نقمة الأيوبيين اختار بالاتفاق مع أمراء المماليك، صبيا صغيرا في العاشرة من عمره من بني أيوب هو الملك الأشرف موسى، وأقامه سلطانا ليكون شريكا له في السلطة، ليجتمع الكل على طاعته، ويطيعه الملوك من أهله، فكانت المناشير والتواقيع والمراسيم تخرج عنهما، ويخطب باسميهما على منابر مصر وأعمالها، وضربت لهما السكة على الدنانير والدراهم[1].

ويبدو أن الملوك الأيوبيين فطنوا لتلك الحيلة، وأدركوا أن الأشرف موسى لم يكن له غير الاسم، في حين كانت الأمور كلها بيد أيبك، واستمروا في استعداداتهم للزحف نحو مصر، عندئذ أعلن أيبك وضع البلاد تحت سلطة الخلافة العباسية صاحبة السلطان القديم عليها، وأنه يحكم باعتباره نائبًا عن الخليفة المستعصم[2]، وأقدم في الوقت نفسه على إلقاء القبض على الأمراء المماليك المعروفين بميولهم للأيوبيين. ويبدوا أن هذه الحيلة لم تنطل أيضا على الملوك الأيوبيين الذين وصلوا استعدادتهم للزحف نحو مصر للقضاء على ثورة المماليك.

خرج أيبك من القاهرة على رأس الجيش المملوكي ، للتصدي للتقدم الأيوبي، ، والتقى الجيشان المملوكي والأيوبي في العاشر من شهر ذي القعدة عام 648هـ/1251م عند العباسة بين مدينتي بلبيس والصالحية، انتصر فيها الملك الناصر في بداية المعركة على الرغم من استبسال السلطان ومماليكه وصمودهم في القتال، غير أنه حدث أن فرقة من جيش الناصر يوسف وهم المماليك العزيزية تخلت عن مواقعها في غمرة القتال وانحازت بدافع العصبية المملوكية إلى الجيش المملوكي.

---

(1) ابن كثير: البداية والنهاية، ج17 ص308 – 348.

(2) المستعصم باللَّه (609 – 656 هـ = 1212 – 1258 م) عبد الله (المستعصم) بن منصور (المستنصر) ابن محمد (الظاهر) ابن أحمد (الناصر) من سلالة هارون الرشيد العباسي، وكنيته أبو أحمد، آخر خلفاء الدولة العباسية في العراق. ولد ببغداد، وولي الخلافة بعد وفاة أبيه سنة 640هـ. الزركلي: الأعلام، ج4 ص 140. ابن خلدون: تاريخه، ج 3 ص 536. الكتبي: فوات الوفيات، ج1 ص 237. أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج7 ص63.

ومن العجيب ان يذكر كل من أبو الفدا[1]، والمنصوري[2]، والعيني[3]، أن الناصر يوسف لم يكن مشهورًا بالشجاعة، فلم يلبث أن تراجع ولاذ بالفرار عائدا إلى الشام، في حين عاد المماليك ظافرين ومعهم الأسرى إلى القاهرة.

كان لهذه الموقعة أثرها وأهميتها في تثبيت أركان دولة المماليك البحرية الناشئة، فقد استثمر أيبك انتصاره هذا فأرسل بعد شهر جيشا بقيادة فارس الدين أقطاي فاستولى على غزة[4] ثم قرر الزحف نحو بلاد الشام للسيطرة عليها[5] .

الواقع أنه لم يقدر للعداء بين المماليك والأيوبيين أن يستمر في هذه الآونة، وذلك بسبب ظهور خطر جديد هدد المسلمين جميعا في الشرق الأدنى، وتطلب منهم أن يتحدوا، وأعني به الخطر المغولي.

وإذ حرص الخليفة العباسي المستعصم على توحيد العالم الإسلامي لمواجهة المغول، فقد أرسل إلى الملك الناصر يوسف يأمره بمصالحة أيبك، كما حث هذا الأخير الذي اعترف بسيادته الاسمية، على قبول شروط الأول، وأن يتفقا على حرب المغول، وتمكن رسوله نجم الدين البادرائي من عقد صلح بينهما تقرر فيه:-

أولا:- الاعتراف الناصر يوسف بسلطة أيبك وسيادة المماليك على مصر وبلاد الشام حتى نهر الأردن ، على أن تدخل مدةن غزة وبيت المقدس ونابلس[6] والساحل الفلسطيني كله في حوزته.

---

(1) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج6 ص 89.

(2) بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية في الدولة التركية، ص28 - 29.

(3) بدر الدين العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج1 ص 42- 43.

(4) مدينة في أقصى الشام من ناحية مصر، بينها وبين عسقلان فرسخان أو أقلّ، وهي من نواحي فلسطين غربي عسقلان. ياقوت: معجم البلدان، ج4 ص 202. القطيعي: مراصد الاطلاع، ج2 ص 993.

(5) بدر الدين العيني: المصدر نفسه، ج1 ص44.

(6) مدينة مشهورة بأرض فلسطين بين جبلين، كثيرة المياه، بينها وبين بيت المقدس عشرة فراسخ. ياقوت: معجم البلدان، ج5 ص 248.

ثانيا:- اعتراف المماليك بسيادة الأيوبيين على بقية بلاد الشام[1].

والحقيقة أن هذه الاتفاقية اكتسبت أهمية كبرى في التاريخ المملوكي، لأنها اعتراف صريح من قبل الأيوبيين بشرعية سلطنة المماليك في مصر.

وإن كان كل من المنصوري[2]، والعيني[3]، وأبو المحاسن[4] يؤكدون أن المغيث عمر[5] خرج بعدها على رأس حملة عسكرية، انتهت بفراره إلى الكرك[6]، بعد خروج الأمير قطز إليه.

ثانيا: امتداد نفوذ المماليك لبلاد الشام والحجاز :-

امتد نفوذ المماليك إلى بلاد الشام والحجاز حينما بدأت تطلعات قطز نحو السلطنة بعد وفاة أيبك حيث تمكن من فرض نفوذه على المنصور نور الدين على معتمدًا على المماليك المعزية.

ولما خلقت الظروف الخارجية وضعًا حرجًا يتطلب وجود رجل قوي على رأس السلطنة، فوجد قطز الفرصة سانحة ليتبوا عرش مصر، فعزل المنصور نور الدين علي في شهر ذي القعدة عام (658هـ/1259م) بمساعدة الأعيان والأمراء المعزية، ثم قبض عليه وعلى أخيه وأمهما وسجنهم في برج السلسلة بثغر دمياط[7].

---

(1) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج29 ص 378 ، 426. المقريزي: السلوك في معرفة دول الملوك، ج1 ص385 – 386.

(2) بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية في الدولة التركية، ص40.

(3) بدر الدين العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج1 ص 181.

(4) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج7 ص 46.

(5) المُغيث الأَيُّوبي (000 – 661 هـ = 000 – 1263 م) عبد العزيز (المغيث شهاب الدين) ابن عيسى بن العادل بن الكامل: من أمراء الدولة الأيوبية. كان صاحب الكرك والشوبك. الزركلي: الأعلام، ج4 ص24. الذهبي: العبر في خبر من غبر، ج5 ص 221. ابن العماد: شذرات الذهب، ج5 ص 305.أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج7 ص 278.

(6) كَرْكُ: بسكون الراء، وآخره كاف: قرية في أصل جبل لبنان، وهي قلعة حصينة جدا في طرف الشام من نواحي البلقاء، وهي على جبل عال. ياقوت: معجم البلدان، ج4 ص 452.القطيعي: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة وبالبقاع، دار الجيل، بيروت، ط1، 1412هـ، ج3 ص 1159.

(7) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج29 ص 468.

كان قطز سياسيًا حكيمًا، وقائدًا بارعًا، تولى الحكم في ظروف قاسية، إذ كان مطلوبا منه أن يوحد الصف الداخلي ليواجه عدوا خارجيا شديد المراس، كما كان عليه أن يبذل جهودا مضنية لكي يحول دون اتصال أمراء الأيوبيين في بلاد الشام بالمغول، خاصة بعد تواتر الأنباء عن انضمام بعض هؤلاء إليهم، لذلك حرص على رفع روحهم المعنوية، فدعاهم إلى التضامن للقضاء على العدو المشترك.

مع اقتراب جحافل التتار من الشام أرسل الملك الناصر المؤرخ والفقيه المعروف كمال بن العديم[1] إلى مصر يستنجد بعساكرها وهكذا بدأت الحرب تطل بوجها المرعب، على الساحة السياسية في مصر، وكان النجم الساطع في تلك الساحة هو الأمير "سيف الدين قطز"، ولما قدم ابن العديم إلى القاهرة، عقد مجلس بالقلعة حضره السلطان الصبي الملك المنصور نور الدين علي، وحضره كبار أهل الرأي من الفقهاء والقضاة، مثل: قاضي القضاة بدر الدين حسن السنجاري، والشيخ عز الدين بن عبد السلام، وكان سيف الدين قطز بين الحاضرين، وسألهم الحاضرون عن أخذ الأموال من الناس لانفاقها على الجنود.

كان هذا الاجتماع من الأدوات السياسية التي أحسن سيف الدين قطز استغلالها للوصول إلى هدفه النهائي، عرش مصر وقتال التتار، وكان ذلك الاجتماع الذي عقد بحضور السلطان الصبي آخر خطوات قطز صوب عرش مصر وقتال التتار[2].

وبينما كان هولاكو يجتاح أقاليم العالم الإسلامي الشرقية كان نجم سيف الدين قطز يزداد سطوعاً وتزداد قامته السياسية طولاً، وكأنه على موعد مع التاريخ لكي ينجز مهمته الكبرى في هزيمة

(1) ابن العَدِيم (588 – 660 هـ = 1192 – 1262 م) عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي، كمال الدين ابن العديم: مؤرخ، محدث، من الكتَّاب. ولد بحلب، ورحل إلى دمشق وفلسطين والحجاز والعراق، وتوفي بالقاهرة. من كتبه "بغية الطلب في تاريخ حلب". الزركلي: الأعلام، ج5 ص40. الكتبي: فوات الوفيات، ج2 ص 101.الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج2 ص313.أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج7 ص 208.ابن الوردي: تاريخه، ج2 ص 215.ابن العماد: شذرات الذهب، ج5 ص 303.

(2) المقريزي: السلوك في معرفة دول الملوك، ج1 ص385 – 386.

الجحافل التتارية الظالمة، لقد استغل قطز إجتماع القلعة لخلع السلطان الصبي، وأخذ يتحدث عن مساوئ المنصور علي، وقال :لا بد من سلطان قاهر يقاتل هذا العدو، والملك الصبي صغير لا يعرف تدبير الملك[1].

وساعده على الوصول لهدفه أن مفاسد الملك المنصور علي كانت قد زادت حتى انفض الجميع من حوله واستهتر في اللعب وتحكمت أمه فاضطربت الأمور وجاءت الفرصة تسعى إلى سيف الدين قطز عندما خرج أمراء المماليك المعزية والبحرية إلى الصيد في منطقة العباسية بالشرقية وفي غزة، وعلى رأسهم سيف الدين بهادر والأمير علم الدين سنجر الغتمي، في يوم السبت 24 ذو القعدة سنة (657هـ/1259م) وقبض قطز على الملك المنصور وعلى أخيه قاقان وأمهما وإعتقلهم في أحد أبراج القلعة، فكانت مدة حكم المنصور سنتين وثمانية أشهر وثلاثة أيام[2].

وهكذا اكتملت رحلة المملوك صوب العرش، وصار سلطانًا على الديار المصرية، وجلس على سرير الملك بقلعة الجبل في نفس اليوم، واتفق الحاضرون على توليته، لأنه كبير البيت ونائب الملك وزعيم الجيش، وهو معروف بالشجاعة والفروسية، ورضى به الأمراء الكبار والخوشداشية وأجلسوه على سرير الملك ولقبوه بالمظفر.

لم يكن جلوس قطز على عرش السلطنة نهاية لرحلة المملوك إلى عرش السلطان، إذ كان على السلطان المظفر سيف الدين قطز أن يوطد دعائم حكمه في الداخل قبل أن يتوجه للقاء عدوه في الخارج، فبدأ بتغيير الوزير ابن بنت الأعز، وولى بدلاً منه زين الدين يعقوب عبد الرفيع بن يزيد بن الزبير، ثم كان عليه أن يواجه معارضة كبار الأمراء الذين قدموا إلى قلعة الجبل، وأنكروا ما كان من قبض قطز على الملك المنصور، ووثوبه على الملك، فخافهم واعتذر إليهم بحركة التتار إلى جهة مصر[3] والشام.

(1) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج7 ص 55.
(2) المقريزي: المصدر نفسه، ج1 ص 417. أبو المحاسن: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج7 ص 55.
(3) المقريزي: السلوك في معرفة دول الملوك، ج1 ص 417 – 418.

وقال سيف الدين قطز في سياق تبريره لما حدث: ((وإني ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتار، ولا يتأتى ذلك بغير ملك، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو، فالأمر لكم، أقيموا في السلطنة من شئتم)).

وأخذ يرضي أمراء المماليك حتى تمكن على حد تعبير المقريزي، وما أن شعر أن سلطته قد رسخت حتى أخذ يتخلص من كل من يمكن أن يشكل تهديداً على عرشه، فأرسل المنصور علي وأخاه وأمه إلى دمياط، واعتقلهم في برج بناه هناك وأطلق عليه أسم برج السلسلة، ثم نفاهم جميعاً إلى القسطنطنية، بعد ذلك قبض السلطان سيف الدين قطز على الأمير علم الدين سنجر الغتمي، والأمير عز الدين أيدمر النجيبي الصغير، والأمير شرف الدين قيران المعزي، والأمير سيف الدين بهادر، والأمير شمس الدين قراسنقر، والأمير عز الدين أيبك النجمي الصغير، والأمير سيف الدين الدود خال الملك المنصور علي بن المعز والطواش شبل الدولة كافور لا لا الملك المنصور، والطواشي حسام الدين بلال المغيثي الجمدار، واعتقلهم.

وهكذا تمكن من التخلص من رؤوس المعارضة، ومن ناحية أخرى، بدأ السلطان المظفر سيف الدين قطز يختار أركان دولته ويوطد دعائم حكمه، فحلف الأمراء والعسكر لنفسه، واستوزر الصاحب زين الدين يعقوب بن عبد الرفيع، وأقر الأمير فارس الدين أقطاي الصغير الصالحي المعروف بالمستغرب أتابكاً وفوض إليه وإلى الصاحب زين الدين تدبير العساكر واستخدام الأجناد، وسائر أمور الجهاد والاستعداد للحرب ضد التتار، لقد ضمن سيف الدين قطز هدوء الأحوال داخل دولته، بيد أنه كان ما يزال متوجساً من ملوك الأيوبيين في بلاد الشام، خاصة الناصر يوسف صلاح الدين صاحب دمشق وحلب، وعندما علم بخبر قدوم نجدة من عند هولاكو إلى الملك الناصر بدمشق، خاف من عاقبة ذلك وكتب إليه خطاباً رقيقاً يحاول فيه تجنب المواجهة وأقسم قطز بالإيمان أنه لا ينازع الملك الناصر في الملك ولا يقاومه، وأكد له أنه نائب عنه بديار مصر، ومتى حل بها أقعده على الكرسي وقال قطز أيضاً ... :وأن أخترتني خدمتك، وإن إخترت قدمت ومن معي من العسكر نجدة لك عل القادم عليك، فإن كنت لا تأمن حضوري سيرت لك العساكر صحبة من تختاره.

وهكذا ظهرت من قطز معاني من التضحية والتواضع والحرص على وحدة الصف ساعدته للتصدي للمشروع المغولي وكسره في عين جالوت.

كما شرع السلطان سيف الدين قطز على ترتيب أحوال الشام بسرعة حتى يتمكن من العودة إلى مصر، فأقطع الأمراء الصالحية والمعزية وأصحابه إقطاعات الشام وجعل نائبه على دمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبي ومعه الأمير أبو الهيجاء بن عيسى بن خشتر الأزكشي الكردي[1].

وأعاد ملوك الأيوبيين أصحاب العروش الصغيرة إلى عروشهم ملوكاً تابعين لسلطان مصر المملوكي وبعث إليه الاشرف موسى، حاكم حمص، والذي كان هولاكو قد عينه نائباً له في حكمها وفي بلاد الشام، يطلب الأمان، فاستجاب قطز وأمّنه على عرشه كذلك بعث بالملك المظفر علاء الدين علي بن بدر الدين لؤلؤ صاحب سنجار ليكون نائباً للسلطان في مدينة حلب ووزع الإقطاعات في المناطق الريفية المحيطة بحلب على الأمراء الموالين له، كذلك قام سيف الدين قطز ببعض التعديلات الإدارية البسيطة في بلاد الشام، فأقر الملك المنصور على حماه وبارين وأعاد له المعرّة التي كانت بيد حكام حلب منذ سنة 635هـ ومن ناحية أخرى، أخذ منه سلمية وأعطاها الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا بن مانع أمير العرب وعين الأمير شمس الدين آقوش البرلي العزيزي أميراً بالساحل وغزة ومعه عدد من أمراء العزيزية وكان هذا الأمير قد فارق الناصر يوسف، صاحب دمشق وحلب، وانضم إلى قوات السلطان قطز في القاهرة، ثم خرج في جيش السلطان وحارب معه في عين جالوت،وأمر بشنق حسين الكردي الطبرادار، فشنق من أجل أنه دل على الملك الناصر[2].

كان لانتصار قطز في عين جالوت أجمل الوقع . على العالم الإسلامي . وخصوصاً مصر فقد استعدت لاستقباله، ودقت البشائر بالقلعة وأقيمت الزينات بالقاهرة وأخذت البلاد تنتظر قدوم المظفر سيف الدين قطز، وعندما وصل السلطان إلى بلدة القصير، بقي السلطان بهذه البلدة مع عدد من خواصه، على حين رحل بقية الجيش إلى الصالحية، بإقليم الشرقية بمصر وهناك أقيم الدهليز

(1) المقريزي: السلوك في معرفة دول الملوك، ج1 ص 815.
(2) المقريزي: المصدر نفسه، ج1 ص 815.

السلطاني "الخيمة السلطانية"، وفي الوقت نفسه بلغت توتر العلاقات بين سيف الدين قطز، وبين ركن الدين بيبرس، وتجدد الخلاف القديم، وأخذ كل واحد منهم حذره وحيطته، وبات الغريمان يتربص كل منهما بالآخر، ولكن بيبرس البندقداري بما عرف عنه من جسارة ودهاء بادر إلى العمل ضد السلطان، فاتفق مع الأمير سيف الدين بلبان الرشيدي، والأمير سيف الدين بهادر المعزي، والأمير بدر الدين بكتوت الجُكنداري المعزي، والأمير سيف الدين بيدغان الرُّكني، والأمير سيف الدين بلبان الهاروني، والأمير بدر الدين أنس الأصبهاني، فلما قرب إلى القصير بين الغرابي والصالحية، انحرف عن الدرب للصيد، فلما قضى وطره.

عاد قاصداً إلى الدهليز، سايره الأمير ركن الدين وأصحابه وطلب منه إمرأة من سبي التتار فأنعم له بها فأخذ الظاهر يده ليقبلها، وكانت تلك إشارة بينه وبين من اتفق معه، فلما رأوه قد قبض على يده، بادره الأمير بدر الدين بكتوت وضربه بالسيف على عاتقه، فأبانه، ثم اختطفه الأمير بدر الدين أنس والقاه عن فرسه، ثم رماه الأمير بهادر المعزي بسهم أتى على روحه، وقيل إن أول من ضربه الأمير ركن الدين بيبرس وهو الصحيح، وذلك يوم السبت الخامس عشر من ذي القعدة، ثم ساروا إلى الدهليز للمشورة بينهم على من يملكوه ويسلموا إليه قيادتهم، فوقع اتفاقهم على الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، فتقدم الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب، المعروف بالأتابك، فبايعه وحلف له، ثم بلبان الرشيدي ثم الأمراء على طبقاتهم، ولقب بالملك الظاهر.

يبدو أن الظاهر بيبرس شعر منذ أن تسلم الحكم، أنه بحاجة إلى دعم أدبي يكسب حكمه صفة شرعية، بعد أن نظر إليه معاصروه على أنه اغتصب منصب السلطنة من المظفر قطز. والواقع أن الحكم المملوكي، بوجه عام، كان بحاجة إلى مثل هذا الدعم، لأن الحكام المماليك شعروا منذ قيام دولتهم، أنهم انتزعوا الحكم من سادتهم الأيوبيين. وحتى يبرروا عملهم هذا، عمدوا إلى إشراك بعض أبناء البيت الأيوبي معهم في الحكم كما سبق وأشرنا يضاف إلى ذلك أن كثيرا من الناس نظروا إليهم من زاوية أصلهم غير الحر، مما كان دافعا لهم للبحث عن سند شرعي يبررون بواسطته حكمهم.

والحقيقة إن العالم الإسلامي شعر بفراغ كبير في منصب القيادة الروحي على الأقل بعد سقوط بغداد في أيدي المغول، وأن هذا الحدث قد خلق موقفا غير طبيعي منذ وفاة الرسول –صلى الله عليه وسلم– إذ كان من المتعذر بعد مقتل الخليفة العباسي المستعصم أن يخلفه أحد من أبناء بيته في بغداد نظرا لأن هذه المدينة أضحت قاعدة للحكم المغولي.

وجدير بالذكر أن المظفر قطز كان قد أقدم على هذا الفعل، وذلك أنه علم حين قدم دمشق بعد معركة عين جالوت، بوجود أمير عباسي يدعى أبا العباس أحمد، قد وصل أخيرا إلى دمشق، فأمر بإرساله إلى مصر تمهيدا لأعادته إلى بغداد، وتذكر بعض الروايات أن المظفر بايع فعلا هذا الخليفة وهو في دمشق[1]غير أن حادثة اغتياله حالت دون تنفيذ هذا المشروع.

وقد شاءت الظروف أن يكون تنفيذ هذا المشروع على يد الظاهر بيبرس الذي شعر بشدة تأثر المسلمين بسقوط بغداد وخلو منصب الخلافة من خليفة يكون له المقام الروحي المرموق، وأصبح الوضع يتطلب أن ينهض زعيم إسلامي طموح يعمل على إعادة إحياء الخلافة العباسية لتؤدي دورها القيادي الروحي في العالم الإسلامي.

بدأ بيبرس في عام (659هـ/1261م) باتخاذ إجراءات التنفيذ فاستدعى الأمير أبا العباس أحمد الذي كان قطز قد بايعه في دمشق، إلى القاهرة، لكنه لم يحضر، ووصل في ذلك الوقت أمير عباسي آخر هو أبو القاسم أحمد، فارا من وجه المغول ومعه جماعة من بني خفاجة فكتب الأميران علاء الدين بيبرس، نائب دمشق ، وعلاء الدين البندقداري كتابا إلى الملك الظاهر يعلمانه بذلك.

ووجد بيبرس فرصته الذهبية التي كان يتمناها، فكتب إلى الأميرين يوصيهما به خيرا، وأن يقوما بخدمته، ويعظمان حرمته، كما أمرهما بأن يرسلا معه حجابا يرافقونه حتى القاهرة.

استعدت القاهرة لاستقبال الأمير العباسي، الذي وصل إليها في الثامن من شهر رجب، استقبالا حافلا، فخرج بيبرس وأعيان الدولة والقضاة، من القلعة لاستقباله، ولما التقيا ترجل الظاهر إجلالا لمقامه، ثم تقدم وعانقه[2]، وتلقب بلقب "الخليفة المستنصر[3]".

(1) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص 530 – 531.
(2) المقريزي: السلوك في معرفة دول الملوك، ج1 ص 448.
(3) بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية في الدولة التركية، ص47. ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، ص 100.

وكتب بيبرس إلى سائر الملوك والأمراء والنواب خارج مصر لكي يأخذوا البيعة للخليفة الحجديد، وأمرهم بالدعاء له على المنابر قبله وأن تنقش السكة باسميهما[1]، وقام الخليفة العباسي بدوره فقلد الظاهر بيبرس البلاد الإسلامية وما ينضاف إليها وما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار وألبسه خلعة السلطنة[2] وبذلك أضحى الملك الظاهر بيبرس سلطانا شرعيا، فأمن بذلك منافسة الأمراء له.

ولكن يبدو أن بيبرس لم يقتنع بكل ما جرى من مراسم التقليد، فأراد تأكيد ذلك مرة ثانية أمام الأمرا، وعقد اجتماع في المطرية من أجل هذه الغاية، تلا فيه فخر الدين إبراهيم بن لقمان، صاحب ديوان الإنشاء، تفويض الخليفة العباسي للسلطان الظاهر بيبرس[3].

وعلى الرغم من هذه المظاهر التي صاحبت إعادة إحياء الخلافة العباسية، فقد وجد من المؤرخين من شك في صحة نسب الخليفة الجديد، فقد روى أبو الفداء تحت عنوان "ذكر مبايعة شخص بالخلافة": أنه في شهر رجب عام 659هـ ، قدم إلى مصر جماعة من العرب ومعهم عم المستنصر "[4]، وكذلك يسمي مفضل ابن أبي الفضائل هذا الخليفة باسم المستنصر الأسود[5].

بعد تولي السلطان بيبرس للعرش،ظل يخشى قيام ثورة ضد حكمه في بلاد الشام من جانب بقايا الأيوبيين، على الرغم من ولاء كل من المنصور، صاحب حماة، والأشرف موسى، صاحب حمص ، للدولة المملوكية.

ويبدو أنه خشى من طموحات المغيث عمر صاحب الكرك، بشكل خاص، الذي كان يسعى لإعادة إحياء الدولى الأيوبية تحت زعامته، معتقدا أنه أحق بتولي العرش من المماليك المغتصبين.

---

(1) المقريزي: المصدر نفسه، ج1 ص 450.

(2) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، ص 100.

(3) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج30 ص 30 -35.

(4) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج6 ص 121.

(5) مفضل ابن أبي الفضائل: النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، ص105.

كان بيبرس قبل تولي السلطة، على علم بنوايا المغيث، وعلى إطلاع تام بما كان يطمح إليه، فلما تولى الحكم عزم على القضاء عليه حتى لا يسبب له من المشاكل ما يشغله عن الاهتمام بالأمور المهمة التي كانت تواجه دولته، وأعني بذلك الخطرين الصليبي والمغولي، فكان القضاء عليه ضرورة اقتضتها سياسة الدولة المملوكية العامة، وتطلباتها واقعية الظروف المستجدة.

وحينما علم بمراسلات الأمير الأيوبي مع هولاكو، قرر التخلص منه وأصبح ذلك ضرورة ملحة.، فحصل على فتوى من العلماء تبرر عمله بحجة أن التعاون مع المغول يستوجب القتل، ثم تحايل على المغيث حتى أحضره إلى معسكره في بيسان بفلسطين واعتقله[1].

وعقد مجلسا قضائيا اطلع خلاله القضاة على الكتب المتبادلة بين المغيب وهولاكو، كما شهد الرسل الذين حملوا الكتب، وحصل على فتوى بوجوب قتله فقتله في شهر جمادى الثانية عام (661هـ/ 1263م)[2]، وضم بيبرس أملاكه وعين على الكرك واليا من قبله، وبذلك تخلص من آخر الأمراء الأيوبيين المناوئين.

بعد القضاء على القوى المناوئة له من الأيوبيين وتدمير آخر طموحاتهم، كان طبيعيا أن يكون الحجاز محط أطماع الظاهر بيبرس، مدركا في الوقت نفسه، ان ضمه للبلاد المذكورة سيقوي مكانته في العالم الإسلامي، ويضفي على حكمه مهابة بين المسلمين، خاصة بعد أن أصبحت دمشق تحت حكمه.

وبرز في هذه الأثناء الخلفاء الحفصيون في تونس، وقد تلقبوا بأمراء المؤمنين، وبسطوا هيمنة فعلية على بلاد الحجاز من خلال اعتراف الأشراف، حكام هذه البلاد، بسلطتهم، مما شكل عقبة أمام الملك الظاهر الذي شعر بخطورة أهداف الخلفاء الحفصيين. وقد رأى ضرورة ضم بلاد الحجاز لأسباب سياسية واقتصادية ودينية.

(1) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج5 ص 87.

(2) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج6 ص 226.

فمن الناحية السياسية، فقد اعتادت مصر، منذ عهد الخلفاء الراشدين أن ترسل الغلال والميرة إلى بلاد الحجاز كضريبة يجب أن تؤديها إلى تلك البلاد التي تضم الحرمين الشريفين، بالإضافة إلى إرسال الكسوة إلى الكعبة التي كانت تصنع من أجمل وأنفس منسوجات الشرق، وقد اشتهرت بها مصر منذ زمن بعيد.

ومن الناحية الاقتصادية، فإن ضم المماليك لبلاد الحجاز تسمح لهم بالتحكم بتجارة البحر الأحمر، ومن ثم بالتجارة العالمية. إذ شاءت الظروف أن يترافق قيام سلطنة المماليك البحرية، في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، مع ازدهارها طريق البحر الأحمر وموانئ مصر، واضمحلال ما عداها من طرق التجارة الرئيسية الأخرى بين الشرق والغرب.

ذلك أن سيطرة المغول على البلدان الشرقية واتخاذ هولاكو بلاد فارس مركزا لدولته، قد عطل بفعل انعدام الأمن مرور القوافل التجارية على طريق التجارة الشمالية بين الصين وآسيا الصغرى، وموانئ البحر الأسود وبلاد الشام. وكان ذلك في الوقت الذي تراجع فيه مجئ السفن القادمة من الشرق الأقصى إلى الخليج العربي، بسبب ازدياد نشاط القراصنة من سكان جزر البحرين، ومن ثم تحولت السفن التجارية إلى ميناء عدن في اليمن.

غير أن حكام اليمن لم يحفظوا على سلامة التجار النازلين في عدن ولا على بضائعهم مما دفع السفن التجارية إلى عدم التوقف في عدن والاستمرار في الإبحار عبر البحر الأحمر، رغم الخطر المفروض على السفن التجارية الوافدة من الشرق الأقصى بعدم تخطي ميناء عدن شمالا في البحر المذكور بسبب الاعتقاد السائد أنذاك بأن هذا البحر مليئ بالصخور، ومن الخطورة بمكان أن تدخله السفن ذات حمولة كبيرة يقودها ربابنة لا خبرة لهم بهذه المناحي. وإنما كانت رحلتها تنتهي عند عدن وتنقل البضائع بعد ذلك ، إما بطريق القوافل البرية المار عبر الجزيرة العربية وإما بطريق البحر الأحمر على سفن إسلامية صغيرة إلى موانئ الحجاز ومصر.

وهكذا ترتب على اضمحلال طرق التجارة الشرقية في القرن الثالث عشر انتعاش طريق البحر الأحمر – مصر، الأمر الذي أتاح للسلاطين المماليك بشكل عام، فرصة ذهبية للإفادة من القيام بدور الوسيط بين تجار الشرق وتجار الغرب.

أما من الناحية الدينية، فأن ضم الحجاز إلى السلطنة مملوكية ستضفي على حكم السلطان بيبرس خالة من المهابة باعتباره مسؤولا عن الحرمين الشريفين، كما تدعم ركائز دولته، وتضعه في مصاف الخلفاء العباسيين، في الوقت الذي كان فيه بأمس الحاجة إلى هذا الدعم.

ومهما يكن من أمر، فقد أخذ بيبرس على عاتقه تنفيذ سياسته الحجازية، فقام بعدة إصلاحات بالحرم النبوي، وأرسل الكسوة إلى الكعبة[1].

كما أرسل الصدقات والزيت والشموع، والطيب والبخور مع كسوة لقبر النبي –صلى الله عليه وسلم- ،وأخيرا أدى فريضة الحج في عام (667هـ/ 1269م) ، وطرد أنصار الحفصيين، وأبطل الخطبة للخليفة الحفصي، وجعلها للخليفة العباسي ثم لسلطان مصر من بعده، كما ضربت السكة باسمه[2].

وبذلك قوي نفوذ الدولة المملوكية في البلاد الحجازية، وكان ضم الحجاز إلى السلطنة المملوكية أحد مظاهر دعم الدولة داخليا وخارجيا.

وخلاصة القول إن قادة المماليك قدموا للأمة أعمالاً جليلة في الفداء والبطولة، فقد استطاعوا أن يقاوموا طوال فترة حكمهم عدوين غاشمين، كانت لهم أطماع في البلاد الإسلامية دينية وسياسية واقتصادية هما المغول والصليبيون، غير أنهم جميعاً لم يستطيعوا تحقيق رغباتهم ولا الوصول إلى اهدافهم إذ كان المماليك يقفون سداً منيعاً حماية للبلاد الإسلامية ودفاعاً عن الدين والأخلاق، فكان جهادهم في هذا المضمار من أعظم الأعمال التي قاموا بها وكانت وقائعهم مع أعداء الإسلام صفحات مضيئة ومشرقة يستفيد منها ويقتدى بها المسلمون كلما أرادوا العزة والكرامة.

لقد استطاع المماليك أن يثبتوا كفاءتهم وشجاعتهم في الميادين العسكرية والسياسية، فنظر إليهم حكام الدول الإسلامية وشعوبها نظرة إكبار وإجلال في حين نظرت إليهم القوى الدولية الأخرى نظرة خوف واحترام، فحرصت على ملاطفتهم ومسالمتهم أو مهادنتهم اتقاء بطشهم

(1) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، ص 89. المقريزي: السلوك في معرفة دول الملوك، ج1 ص 502.

(2) المنصوري: التحفة الملوكية في الدولة التركية، ص66. المقريزي: المصدر نفسه، ج1 ص 579 ، 582.

وانتقامهم وبذلك تكون دولة المماليك قد فرضت احترامها على الأعداء والأصدقاء وتسابق الجميع في كسب مودتها وإقامة العلاقات معها، وشهدت القاهرة نشاطاً سياسياً ضخماً في تلك الحقبة من تاريخ المماليك.